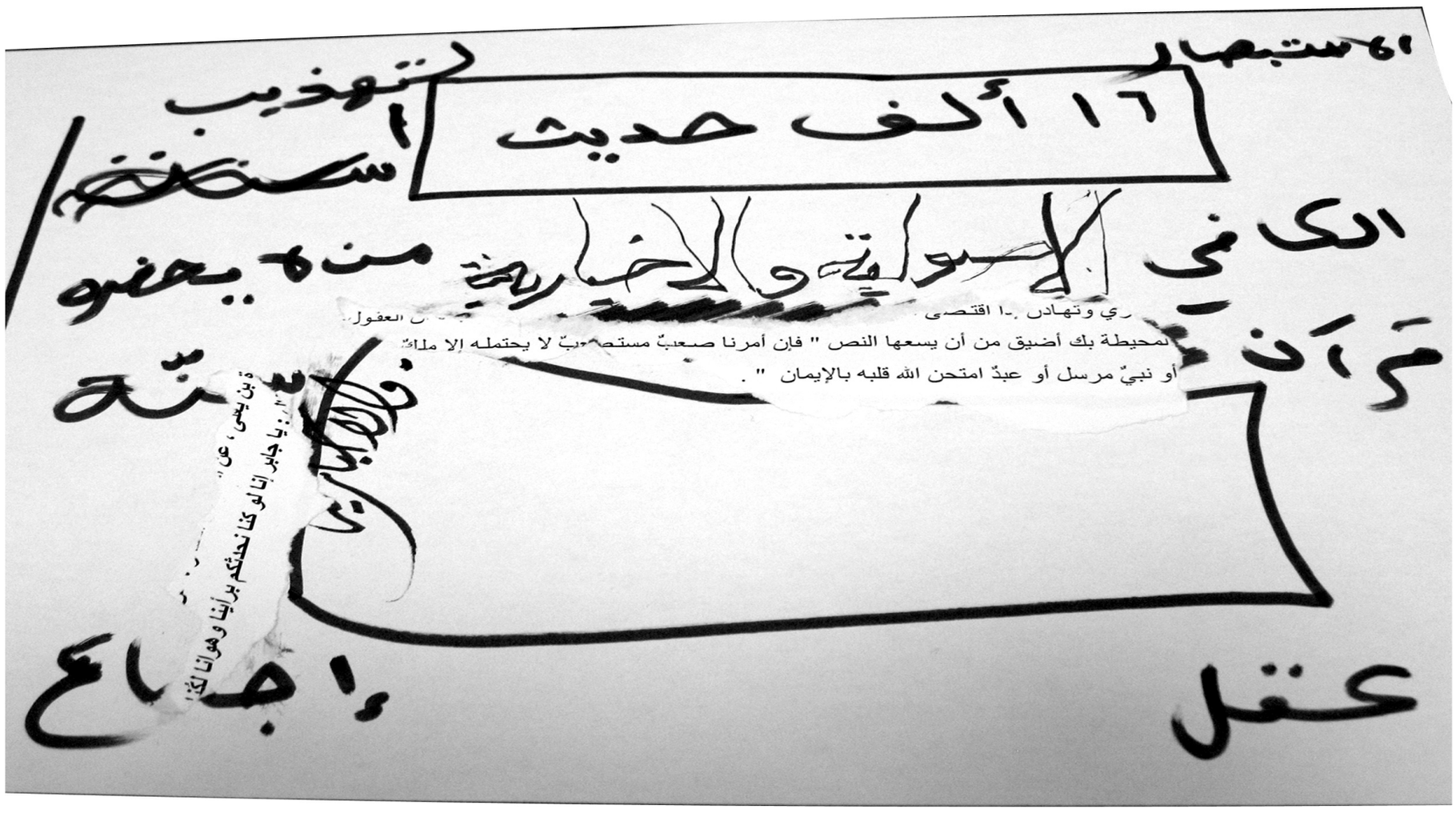

الوقت - علي الديري

هل (الإخبارية والأصولية) موضوع أو محمول أو قضية أو جدلية أو فتنة أو ملف أو صراع أو هو كل ذلك، أياً كان هو، لكن ما إن تفتحه، فإنه ينفتح عليك تاريخ مشحون، مشحون بالأسماء والأعلام والأحداث والمواقف والكتب والاختلافات والخلافات والسير والمدارس والجغرافيا والمعرفة والدين والسياسة والسلطة والقوة والثقافة والآراء والأقوال، إنه تاريخ المعرفة، والمعرفة ليست شأناً مقدساً، إنها أقرب إلى التدنيس منها إلى التنزيه، فهي من صنع الإنسان، والإنسان لا يصنع شيئاً منزّهاً، مهما كان بديعاً وجميلاً، فالإنسان يشحن ما يصنعه، بكل ما فيه من خير وشر وعقل وهوى وروح ومادة.

(الإخبارية والأصولية) بما تحمله من تاريخ مشحون، هي المعرفة الدينية الشيعية التي أنتجها علماء الدين طوال هذه القرون، كيف يمكنك أن تقرأ هذا التاريخ الطويل؟

مكتبة أبي الإخبارية

اخترت أن أقرأ تاريخها غير المنزّه، من مكتبة أبي، أبي الذي ألفتُ أن أسمع فمه يردد باستمرار اسم كتاب (السداد) للشيخ حسين العلامة، كان يحكي شيئاً من سيرته، وشيئاً من فتاواه، خصوصاً فتاواه المتعلقة بباب الطهارة والصلاة والحج، وكان موضوع طهارة النواصب يثير إشكالاً معاصراً عندي، فالشيخ حسين وضع سداده في القرن الثامن عشر الميلادي، وفي ظروف تاريخية متوترة، كان نتيجتها مقتله في(1216هـ – 1801م) وهروب عائلته بتراثه الفقهي الغزير إلى بوشهر.

كتاب السداد

كان كتاب الشيخ حسين الموضوع في مكتبة الوالد مطبوعاً الطبعة الثانية بتحقيق في النجف في مطبعة النعمان، في سنة 1961. كان على غلافه (طبعه الأقل جواد السيد فضل الوداعي الموسوي البحراني أحسن الله خاتمته).

انطبعت صورة غلاف الكتاب بلونه الأخضر الفاتح في ذهني، حتى غدت كأنها أيقونة في مخيلتي، كلما جاء الوالد على اسم الشيخ حسين، جاءت صورة الغلاف، وتأتي معها صورة الشيخ حسين، لكن ليس الشيخ حسين العلامة. إنها صورة الشيخ حسين بن الشيخ عباس الستري، كان يقيم الجماعة في قريتنا يوم الجمعة منذ الستينات، وحتى مطلع الثمانينات، وعادة ما يكون غداؤه وقيلولته في مجلسنا. توضيح جمل السداد الغامضة، يتولاها الشيخ بعد قيلولته، اقترح عليه الوالد في 1983 أن يعلمنا النحو من متن الإجرومية، كنا نقرأ من (التحفة السنية في شرح متن الإجرومية) كانت النسخة صفراء وخطها صغير. جلست إلى درس الشيخ وأنا في الصف السادس، لم أستوعب شيئاً من درسه، لكني كنت حريصا وفخوراً بالجلوس إلى حلقة الدرس. مع هذا الحرص، لم تتحسن مهاراتي في اللغة العربية ولا في النحو، فقد ظلت درجاتي فيها في حدود الجيد أو ربما أقل.

منهاج الصالحين

سأغادر مجلس الشيخ المعتق في إخباريته، وأنا أحمل اسم شيخ حسين العلامة وصورة غلاف كتابه، لكن هذه الصورة لن يكتب لها أن تستقر في تديني، ففي السنة نفسها سأنفتح على دروس المأتم الدينية، حيث هناك الثورة على فكرة تقليد الميت ابتداء التي كانت تعني الثورة على مدرسة الشيخ حسين الإخبارية، هناك سيتولى مدرسونا في المأتم طرح المرجعيات الأصولية الجديدة التي لم أسمع أبي يذكرها، ولا الشيخ حسين بن الشيخ عباس يرددها، اخترت السيد الخوئي ليكون مرجعي ومقلدي، واشتريت رسالته العملية (مناهج الصالحين) كان غلافها أكثر غماقة من غلاف كتاب السداد، ولاحقاً سيأخذنا أساتذتنا بالمأتم إلى السيد علوي الغريفي، حيث كان يخصص درساً لشرح المنهاج، شرحاً مبسطاً وسريعاً. وكان باب الطهارة هو الباب الذي تمكنت من متابعته في درس السيد علوي.

حتى هذه اللحظة لم أكن قد سمعت بمصطلح الأصوليين والإخباريين، كنت أستشعر أن هناك حساسية جديدة بدت تتشكل تجاه شيخ حسين العلامة وتجاه مقلديه، بدأنا نرى في تقليد الشيخ حسين نموذجاً تقليديا قديماً، وهو لا يتماشى مع حركة الإسلام الثورية الجديدة. كما بدأنا نستشعر بنفرة تجاه تقليد الأموات، وصرنا نرى التدين الذي يمثله الآباء بالرجوع إلى هؤلاء الأموات تديناً تقليدياً ينبغي مفارقته، حتى كنا نستشكل على ممارساتهم الفقهية، ونتندر على وعيهم الديني.

صدمة مطهري

ستشكل لحظة التعرف على مصطلحي الإخبارية والأصولية صدمة لوعيي الديني، كنت لحظتها في المرحلة الإعدادية، أقرأ كتاب مرتضى مطهري (الاجتهاد في الإسلام)، قرأت فقراته العنيفة تجاه الإخباريين، لم أكن حينها أعرف هذا المصطلح، لكني فهمت من خطابه، إنهم علماء وفقهاء، كنت أتساءل: كيف ينال منهم؟ هل يجوز أن ننال من الفقهاء؟ أليست نجاتنا في تقليدهم؟ ما مصير هؤلاء الناس الذين يقلدونهم؟ هل أعمالهم باطلة؟ أليسوا من الصائنين لدينهم والحافظين لأمر مولاهم من الذين للعوام أن يقلدوهم، ليكون عملهم صحيحا؟

كان مطهري، يقول بنبرة تهويلية "هنا ينبغي أن نشير إلى حدث مهم وخطير برز في عالم التشيع خلال القرون الأربعة الماضية يتعلق بموضوع الاجتهاد. وهذا الحدث هو موضوع «الإخبارية». ولولا وقوف عدد من العلماء البارزين الشجعان في وجه تلك الموجة وصدها، لما كنا نعرف وضعنا الحاضر. إن مذهب الإخباريين هذا لا يزيد عمره عن أربعة قرون، ومؤسسه رجل اسمه «الملا أمين الاسترآبادي» وكان رجلاً ذكياً، وقد اتبعه جمع من علماء الشيعة. يدّعي الإخباريون أن الشيعة القدامى،حتى أيام الصدوق، كانوا يتبعون المسلك الإخباري. ولكن الحقيقة هي أن الميول الإخبارية، باعتبارها مذهباً له أصول معينة، لم يكن لها وجود قبل أربعة قرون.إنهم ينكرون أن يكون العقل حجة، المذهب الإخباري ضد مذهب الاجتهاد والتقليد، كانت الإخبارية حركة مناوئة للعقل، وهي تتميز بجمود وجفاف عجيبين".

كان السؤال الذي يراود براءة تصوري الطفولي، هو كيف لعالم دين أن يهاجم علماء دين آخرين من نفس مذهبه؟ ولماذا هذه الحدة في الهجوم؟ وكان وقع الصدمة يزداد كلما واصلت القراءة ووجدت أن مطهري يمعن في هجومه، خصوصا وأن مطهري كان يمثل بالنسبة لي نموذجا لعالم الدين المتفتح المثقف الذي لديه اطلاع عصري في كل شيء، أي أنني لم أشك أن مطهري ربما يكون مخطئاً، لكن كيف يمكن أن يقع هذا التناحر بين علمائنا، هذا ما كان يؤلمني لحظتها.

التاريخ المنزّه

ما هدّأ شيئاً من صدمتي، هو أن مطهري يتحدث عن تاريخ بعيد جدا، وإن كانت حساسيتنا الدينية، تجعلنا نرى العلماء كلهم وكأنهم يعيشون في لحظة زمنية واحدة، فالعالم الذي عاش قبل 400 سنة له القدسية نفسها التي للعلماء المعاصرين، فهو امتداد لتاريخ منزّه، ولا يذكر اسمه إلا بالألقاب التبجيلية، كان مطهري يقول "ولكن من حسن الحظ أن أشخاصا حكماء، مثل وحيد البهبهاني، وكذلك طلابه، ومن ثم المرحوم الحاج شيخ مرتضى الأنصاري أعلى الله مقامه، بادروا إلى الوقوف بوجه هذه الحركة. كان وحيد البهبهاني في كربلاء، وفي الوقت نفسه كان صاحب «الحدائق» الإخباري في كربلاء أيضاً، وكان لكليهما حلقة درس. كان وحيد اجتهادي المسلك، وكان صاحب «الحدائق» إخباري المسلك. ولقد كان صراعاً صعباً حقاً ، انتهى بانتصار وحيد البهبهاني على صاحب «الحدائق» . أمّا الشيخ الأنصاري فقد كافح الإخبارية بوضعه أساساً متقناً لعلم الأصول، بحيث إنّه كان يقول لو أن أميناً الاستر آبادي كان حياً لقبل بما وضعته في علم الأصول. وعلى أثر هذه المكافحات اندحرت الطريقة الإخبارية، وليس لها اليوم أتباع إلاّ في بعض الزوايا النائية".

تخريب الحدائق

كنت قد اعتدت أن أسمع اسم الشيخ حسين العلامة، مقترناً باسم الشيخ يوسف البحراني، فهو أستاذه وخاله، وهذا ما شكّل صدمة أكبر بالنسبة لوعيي الديني الذي شكّله أبي بترداد اسم شيخ حسين. كنت أرى الشيخ حسين العلامة في صورة شيخ حسين الستري ولم أشك أن لحيته البيضاء البهية هي نفسها لحية صاحب السداد.

أحسست كأن مطهري قد عبث بحدائق الشيخ يوسف البحراني، فالحدائق التي لم أرها، كنت أسمع باسمها يتردد بتبجيل عظيم، فهي موسوعة الشيخ يوسف الفقهية الكبيرة التي لم يؤلف مثلها في التاريخ. لقد استقرت في وعيي صورة هذه الحدائق مقرونة بالتبجيل، فكيف يخربها مطهري بدفقة حبر؟!!

ذهبت لأستاذي في المأتم أستفسر منه، وأطلب منه توضيحاً يهدئ من صدمتي، كان جوابه يشبه جواب من يريد أن يغلق ملف قضية تاريخية قديمة، قال لي، الأصولية والإخبارية فتنة قديمة، ولا نريد إثارتها كي لا تكون فتنة تضعف وحدة الصف الإسلامي، لقد أفهمني ذلك بحس يشبه الحس الأمني.

مكتبة تقليد الأموات ابتداء

لم أكن أعي حينها، أن حركة التدين الثورية الجديدة التي جاءت بها الثورة الإسلامية في إيران، ستجد في نمط التدين التقليدي الذي يمثله النمط الإخباري المعروف في البحرين، والذي لم يكن له منافس، ستجد في هذا النمط ما يتعارض معها، وأنها ستعمل على تغييره. لن يكون هذا التغيير سهلاً، رغم أن الثورة وجدت قبولاً في نفوس الناس، فالآباء لم يجدوا أنهم مضطرون لتغيير أنماط تدينهم وأسماء مراجعهم ومقلديهم، لكن الحس الثوري التغييري، وجد في كل شيء تعارضاً، تعارضاً يحتاج إلى تغيير وإلا أصبح معارضة، والمعارضة تفضي إلى الصدام.

لكن الصدام هذه المرة لم يكن تحت عنوان الإخباريين والأصوليين، لكن من مثلوا التدين الإخباري، كانت حساسيتهم الدينية للعالم مختلفة تماماً عن الحساسية الجديدة للثورة، لذلك كان على الإخبارية أن تتراجع أو أن يتراجع عنوانها وتعيد تمثيل نفسها في شكل آخر. وتلك حكاية أخرى تحتاج إلى فصل جديد.

لقد فتحت، اليوم، مكتبة أبي فوجدتها كما هي، تخبر عن تاريخ ما قبل الثورة، ما قبل تقليد الأحياء، وإشكال صلاة الجمعة، وتقليد الولي الفقيه، وولاية الفقيه، وآية الله، والمجتهد، والمرجع الأعلى. لم تكن تخبر عن تاريخ ما بعد الثورة.

فتحت مكتبته، فوجدت فيها، (سداد العباد ورشاد العباد)، وكتاب (الحج من كتاب سداد العباد) للعلامة الوقور الشيخ حسين آل عصفور البحراني، وكتاب تلميذه (كنز المسائل والمآخذ في شرح المختصر النافع) بأجزائه الخمسة لخاتمة المحدثين العلامة الشيخ عبدالله الستري البحراني (1776– 1853). و(الرسالة الصلاتية) للشيخ يوسف البحراني (1695- 1772).

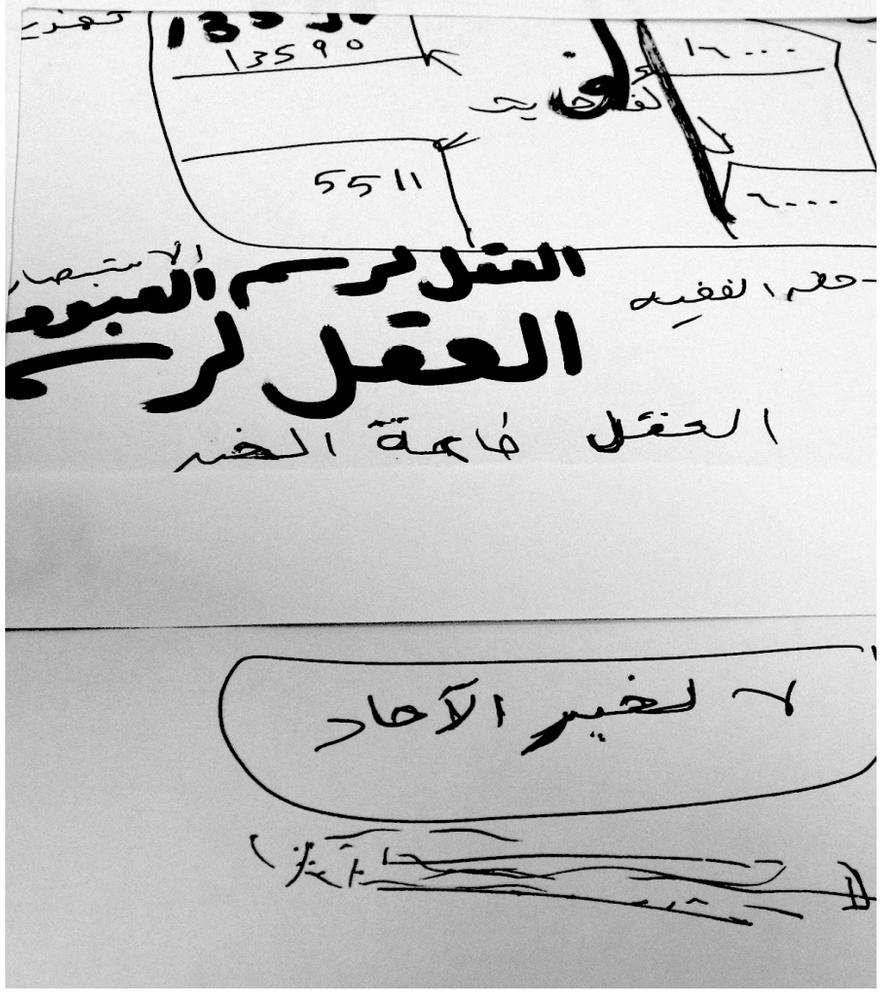

■ علي الديري

«الأخبارية والأصولية»

ليس تاريخ الدول والملوك والحضارات والفتوحات والاستيلاءات وحده الجدير بالعبرة، وليس وحده ميدان اختلافات، وليس وحده موضوعا تحفّه المحذورات والتحذيرات وسلطات المنع، فتاريخ المعرفة كذلك. في الأسابيع الماضي حين كتبت مقالة (إعراب ذاكرة الفعل فتح) ومقالة (درس التاريخ) اشتغلت آليات التحذير والتشكيك والسؤال عن جدوى فتح التاريخ ولمصلحة من، وتحت أي ضمانة.

الآليات نفسها اشتغلت حين بدأت العمل على ملف (الأخبارية والأصولية)، بل إن كثيراً من الأصدقاء اعتذر عن المشاركة متذرعاً بالآليات نفسها.

الصديق عباس ميرزا، قال لي، الموضوع جدير بالاهتمام ولدي ما أقوله فيه، لكن السياق السياسي والاجتماعي المشحون بالتوجس لا يسمح لي بذلك، ولا تنسَ أن هناك توصية وردت في تقرير مثير تنص على "إثارة مشكلة أخباري وأصولي في كل الأبعاد والأماكن".

الشيخ محسن العصفور، قال لي، هناك جريدة قبلكم طلبت مني فتح هذا الملف، لكني أفضل أن أتعامل مع جريدتكم في هذا الملف بالذات، كي لا يساء استغلاله، وأرجو ألا تكون لديك أجندة حداثية توجه من خلالها الملف، وإلا سأنسحب.

الشيخ موسى العريبي، بمجرد أن أعلن الشيخ حميد المبارك في مجلسه الأسبوعي، أنني قادم من أجل فتح هذه القضية، قال ببديهة خاطر ومرح حاضر "بل بل ما صدقنا افتكينا منها".

الدكتور ناصر المبارك، الذي نُشِّأ في الخصام المبين في مدرسة الشيخ سليمان المدني الأخبارية، حين طلبت منه أن يكتب تجربته الأخبارية، ما سجته "أريدك أن تكتب تجربتك الأخبارية كما عشتها وقرأتها وأظهرتها وتمثلتها واحتربتها.. اكتب طوقها فيك وشقها في جنبك وتشجّرها في حسك وصياغتها لوجودك وتشققها في معرفتك". قال لي: لا أريد أن أثير شق فتنة.

لا يمكنك أن تقول ببراءة أو سذاجة إنك تفتح ملفات تاريخ المعرفة أو تاريخ السياسة، من أجل قضايا معرفية بحتة، أو أنها خطرت في ذهنك صدفة ذات حلم أو صباح، فأنت مطالب أن تسوق تبريرات وحججا. فما حجتك التي تبرر بها هذا الفتح؟

يكفيني حجةً، بروفايل، فبروفايل منذ أن بدأ وحتى هذه اللحظة التي يوشك فيها أن يختم تجربته الثرية، هو دوما يبحث عن شق في المجتمع يرى من خلاله تحولات الجماعات والأفراد والأفكار ويفهم انتقالاتها وتجسداتها. فالأصولية والأخبارية، لا يمكن اختصارها في قضية خلاف ديني داخل مذهب ما، بل هي موقف من فهم العالم والدين والنص والغيب واليقين والظن والرواية والدراية والمعرفة والعقل والإنسان والزمان والدولة، وموقف الفهم هذا لم يكن يوماً محصورا في بطون الكتب، بل هو منتعش في حياة الناس وتجاربهم الاجتماعية والدينية. والبحرين واحدة من أهم الحواضر التي عاشت هذه التجربة، وتجربة الإنسان هي ما يبقى بعد أن ننسى كل شيء.

ali.aldairy@alwaqt.net

Issue العدد 640
الخميس 12 ذو القعدة 1428هـ
Thursday - 22 November 2007 22 نوفمبر

في حوار مع الشيخ حميد آل مبارك:

حساسية «الأخباري» و«الأصولي» غير حاضرة اليوم

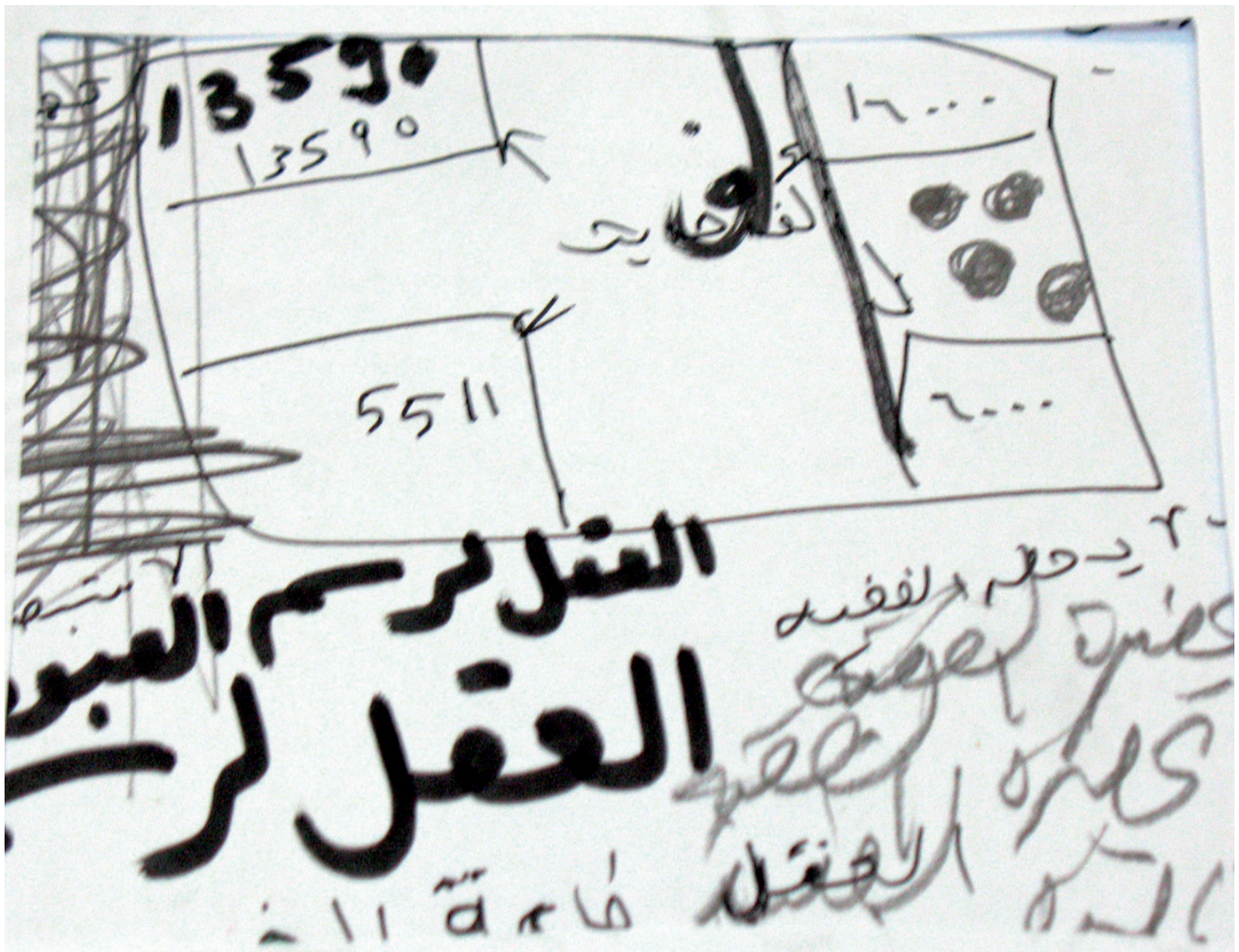

يذهب الشيخ حميد المبارك إلى أن الأصولية والأخبارية لم تعد اليوم تثير حساسية في الحياة اليومية، وأن جيله من العلماء قد شهد في طفولته نهايات هذه الحساسية التي رافقت مجيء السيدعلوي الغريفي من النجف حاملاً اتجاهاً أصولياً جديداً على الساحة البحرينية، وقد كسرت الثورة الإيرانية هذه الحساسية، بعد انتصارها وانتصار التحولات الاجتماعية الدينية التي مثلتها. في هذا الحوار نستعرض شهادة الشيخ حميد على تاريخ هذه الحساسية.

الأخبارية عندهم حساسية من البحوث العقلية

الأخبارية يدعون أن العقائد يمكن الاستدلال عليها بالعقل الواضح

المذهب الشيعي مذهب تأويلي، لكنه نابع من النصوص نفسها، المذهب الشيعي قائم على تأويل القرآن وليس تأويل الحديث

■ هل تثير مسألة الأصوليين والأخباريين حساسية اليوم؟

– اليوم لا أظن أنها تبدو حساسة، ما هي دلائل الحساسية عند الناس، هل هو عدم التطرق إلى الموضوع؟ أو هل ردود فعل معينة؟ لا أجد أية علائم للحساسية. لعلها تثير فتنة لو طرحت بأسلوب غير علمي، أو حتى لو طرحت بأسلوب علمي ولكن فيه شيء من التجريم أو التهوين للمسلك الأخباري أو الأصولي. تحدثت مرة في مجلس الشيخ الجمري عن الشيخ ميثم البحراني، وتعرضت إلى محاولة تفسير سبب تأخر النتاج العلمي الفقهي والشرعي، كنت قد عزوته إلى غلبة المد الأخباري، لأنه اتجه إلى النصوصية الحرفية، بدلاً من الاجتهاد. فواجهت ردود فعل تستنكر عليّ ذلك، فالحساسية على هذا المستوى.

لكن هذه الحساسية غير حاضرة في الحياة اليومية، وهذا هو المهم، سابقاً عندما كنا صغاراً كانت حاضرة في الحياة اليومية، مثلاً لو كنت أمشي معك كنت سأسألك هل أنت أخباري أم أصولي، لو جاء شخص يخطب ابنتي كنت سأسأله، هل هو أخباري أم أصولي. كان الناس يسألون هذا الأمام أخباري أم أصولي. عندما كنا أطفالاً حين كان يزور قريتنا في عالي سيدعلوي الغريفي كان يقال جاء السيد الأصولي، كانت زيارته حدثاً في عالي، وهناك من كان يتردد في السلام عليه باعتباره أصولياً. اليوم لا توجد هذه الحساسية، اليوم يمكن يسألونك عن خطه السياسي.

■ هل الأخبارية لها ممثلون أو مواقع أو معاقل في البحرين؟

– لا نستطيع القول إن لها معاقل، هناك بيوتات وعائلات علمية تمثلها في حوزات، هناك عائلة آل عصفور وعنده حوزة العلمين، والعلمان هما الشيخ يوسف العصفور والشيخ حسين العصفور، وهما مرجعا الأخبارية في البحرين. وهناك عائلة الشيخ منصور الستري، وعندهم الحوزة المنصورية، وهي ملتزمة بخط الشيخ عبدالله الستري (1776–1853) الذي يطلق عليه خاتمة المحدثين، وهو تلميذ شيخ حسين العلامة.

البيت الثالث هم عائلة المدني وهم يمثلون الخط الحدائقي نسبة إلى الشيخ يوسف البحراني (1695–1772). والشيخ سليمان المدني وريث سلسلة من العلماء الذين تعاقبوا في جدحفص، ومنهم الشيخ عبدالحسن آل طفل صاحب حوزة الشيخ عبدالحسن، وبعد الشيخ حسن صارت الزعامة للشيخ سليمان المدني، فالشيخ سليمان هو وريث هذا الامتداد.

أما عائلة المبارك، فلا تجد عندهم مركزاً أو حوزة تؤكد هذا المنهج، وليس لديهم امتداد عائلي أخباري عتيد، فقط الوالد الشيخ إبراهيم المبارك ظهر ممثلاً للمدرسة الأخبارية. وكانت مرجعيته الشيخ حسين العصفور.

■ كيف هو وضع الحوزات الأخبارية الآن، أعني وضعها المعرفي، ما هي الكتب التي تدرس فيها؟ وهل لديهم حساسية من كتب علم الأصول؟

– تدرس الكتب المتعارفة في الحوزة، بعضهم لا يرغب التوسع في علم الأصول، لكنهم يدرسون الكتب الأصولية، لأن طالب العلم لا يحظى بالاعتراف إلا إذا درس هذه الكتب. لا يوجد في البحرين بحث خارج (الدراسات العليا) ولا يمكن للطالب أن يواصل دراساته الحوزوية في الخارج من دون دراسة الكتب الأصولية.

■ هل هناك كتب في علم الأصول على الطريقة الأخبارية؟

– لا، لكن هناك مقدمات كتاب الحدائق، يمكن اعتباره علم أصول إخبارياً مختصراً، ومستقى من النصوص نفسها، وهو قواعد عامة ولا توجد فيه بحوث عقلية، وعموماً الأخبارية عندهم حساسية من البحوث العقلية، وإذا تلاحظ مقدمات الأخبارية الاستدلالية، تجدها مقدمات أصولية وفقهية، ولكنها من الروايات أو من قواعد لغوية أو قواعد منصوصة، ولا يتعدون بها إلى بحوث عقلية.

■ أين توجد الأخبارية خارج البحرين؟

– توجد في خوزستان والبصرة وهناك في كرمان إخبارية، وأخبارية كرمان عجم، وهم أكثر تطرفاً في الأخبارية ولهم أفكار غريبة.

أخبارية إيران على تواصل شخصي مع بعض مشايخ البحرين، خصوصاً الذين كانوا يدرسون في قم، وهناك زيارات شخصية.

■ ما المرجعية الأكثر حضوراً عندهم؟

– شيخ حسين العلامة وهو أكثر حضوراً من الشيخ يوسف.

■ هل لأن شيخ يوسف تحول إلى أصولي كما يقال؟

– هو تحول عن البحرين تحول عن عاصمة الأخبارية وذهب إلى شيراز وكربلاء وهو مدفون هناك بحسب وصيته، بينما بقي شيخ حسين في المعقل الأخباري. لا أعتقد أن هناك دلائل واضحة تؤكد تحوله إلى أصولي. لكن منهجه أكثر اعتدالاً من شيخ حسين، وهذا أمر طبيعي لأنه خرج من مساحة البحرين وعاش في أماكن متعددة وخالط علماء كثيرين.

■ هل لدى الأخبارية إنتاجات على مستوى علم الكلام؟

– هم يدعون أن العقائد يمكن الاستدلال عليها بالعقل الواضح، وصاحب مقدمات الحدائق يفرق بين العقل الواضح والأقل وضوحاً، وهذا العقل الواضح البديهي هو الدليل، وهم يستخدمونه في علم الكلام للاستدلال على الأصول العقائدية، وتوجد مؤلفات في علم الكلام للشيخ حسين العلامة. أما في الفروع المتعلقة بالأحكام الفقهية، فلا يجوز لديهم، هنا النص هو الدليل.

■ يقوم التشيع في جانب كبير منه على التأويل، فكيف ينسجم هذا مع نزعة الأخباريين لتحيكم الظاهر؟

– المذهب الشيعي مذهب تأويلي، لكنه نابع من النصوص نفسها، المذهب الشيعي قائم على تأويل القرآن وليس تأويل الحديث، تأويل القرآن بالنص الروائي، نستخدم النص لتأويل نص آخر، وليس العقل لتأويل النص. نحن نؤول النص بالنص وليس بالعقل. نؤول حروف «كهيعص» بنصوص تحدد الأسماء التي تحيل إليها هذه الحروف.

■ ألم تؤثر النجف التي هي معقل الأصوليين في نموذج رجل الدين الأخباري البحراني، وأنا أتحدث هنا عن الجيل الذي ذهب إلى النجف في الأربعينات والخمسينات والستينات؟

– كان التواصل مستمراً بين البحارنة والنجف، كانوا يذهبون للدراسة هناك، ليعترف بهم ولكنهم يبقون على نهج المدرسة الأخبارية، النجف مرجعيتها أصولية، الشيخ إبراهيم المبارك درس أربع سنوات في النجف وحضر دروس الشيخ محسن الحكيم والسيد الخوئي، ولكن بقي على أخباريته، رغم أنه تتلمذ على يد الأصوليين، لكنه ظل متمسكاً بأخباريته. الجيل التالي الذي ذهب إلى النجف ظل أيضاً متمسكاً بأخباريته مثل الشيخ سليمان المدني، الشيخ عيسى قاسم، والشيخ عبدالأمير الجمري، ذهبوا أخباريين ورجعوا أخباريين.

لا شك أن خطاب الشيخ عيسى والشيخ عبدالأمير اختلف نوعاً ما نتيجة تأثرهم فترة بالسيد محمد باقر الصدر، السيد الحكيم، والشيخ محمد أمين زين الدين.

كتاب القول المفيد في أهم مسائل التقليد للشيخ باقر

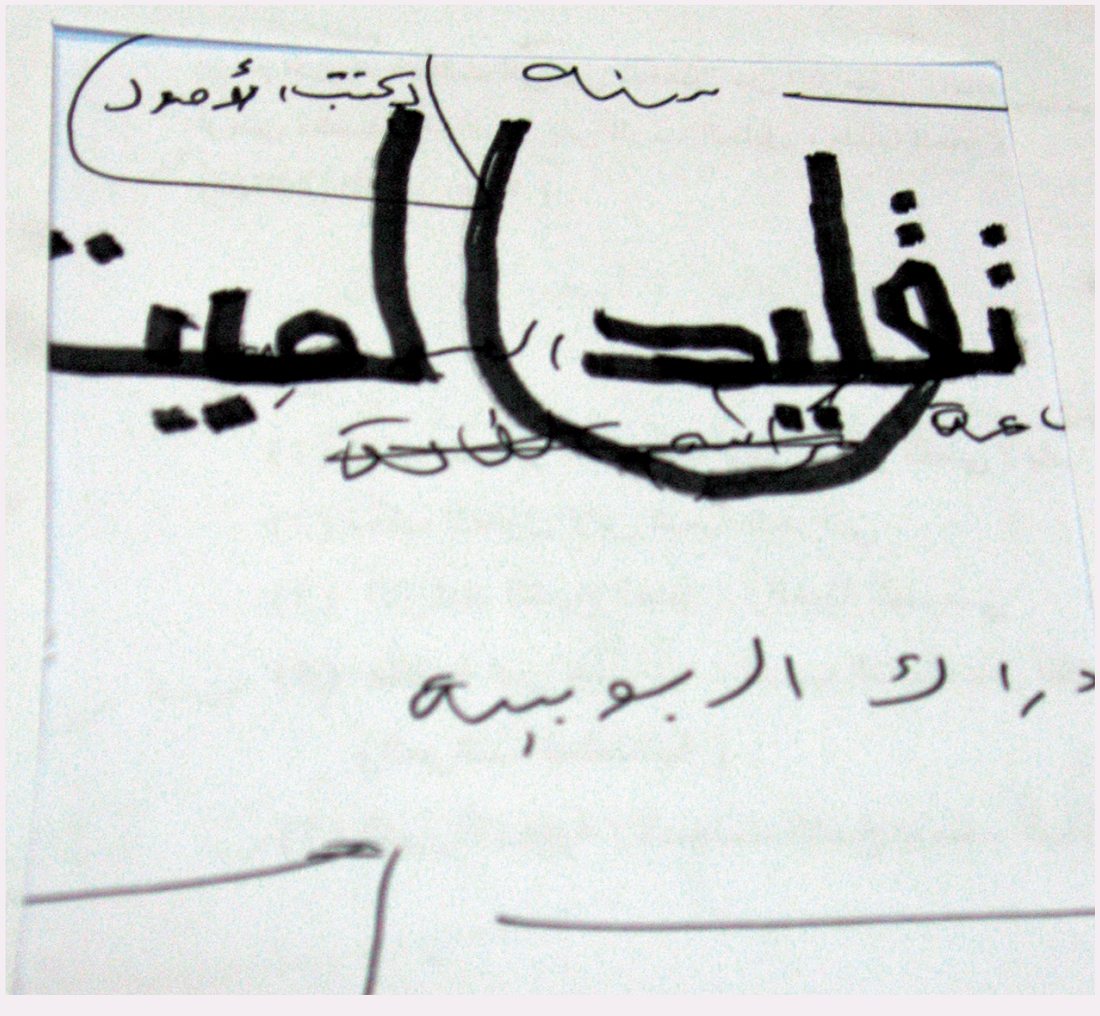

ومن هذا التاريخ امتاز الفريقان وتباين المسلكان فصار السالك لمسلك القدماء يسمى بـ"الأخباري" والذي سلك مسلكاً جديداً غير الأوّل بـ"ألأصولي" وأوّل شيء اختلفوا فيه هو تعريف الاجتهاد والمجتهد وما فيه الاجتهاد، والتقليد والمقلد، فمعنى الاجتهاد عند الاخباري: هو استفادة الأحكام الشرعية الفرعية من مدا ليل الأخبار المعصومية بعد تقييد مطلقها، وتخصيص عامها، والتأليف بين مختلفاتها بالميزان الذي تلقوه من أخبار الأئمة عليهم السلام لا يعدونه إلى غيره. فإذا أشكل عليهم حكم من الأحكام احتاطوا عملاً، ولا يحكمون على الشيء المشتبه الحكم بأنه حلال أو حرم فمعنى التقليد عنده: هو اعتماد العامي على فتوى هذا العالم . أمّا معنى الاجتهاد عند الأصولي والتقليد فهو معناه عند علماء الأصول من العامة. قال التفتازاني: الاجتهاد هو استفراغ الوسع لتحصيل الظن بالحكم الشرعي. وقال الآمدي: الاجتهاد باصطلاح الأصولي مخصوص باستفراغ الوسع في الأحكام الشرعية. وأمّا ما فيه الاجتهاد فما كان من الأحكام الشرعية دليله ظنيّاً، أمّا القطعيات فلا اجتهاد فيها ولا تقليد.

وقال العلامة (أعلى اللّه مقامه) في التهذيب: المجتهد فيه هو كل حكم شرعي ليس عليه دليل قطعي، وقال الشارح عميد الدين: الاجتهاد هو كل حكم شرعي ليس عليه دليل قطعي. ومقتضى هذا التعريف للحكم الشرعي: أن لا تطلق الفتوى على الحكم المعلوم مع إن القرآن الشريف سماه فتوى، قال تعالى : (يستفتونك في الكلالة، قل اللّه يفتيكم) . وأخبار الباري جل اسمه والنبي صلى اللّه عليه وآله بالأحكام المذكورة إنما هو عن علم، وقد سماها فتوى: (قل اللّه يفتيكم). أما الاخباري فإنّه يقول: إن قول الفقيه إنما هو شرح للأخبار، لأنه لا يخرج عن منطقة الخبر، وهو رائد العامي حياً وميتاً وراوياً ورائياً، ويقول : إنّ الراوي واسطة بين الفقيه والإمام في نقل الأحكام معتمداً بتعميد الإمام إيّاه على ضبطه وتقواه. والأصولي يقول : إنّ فتاواه إحكام ظنية، ويجب العمل بها على الرعيّة، ورتب لذلك شكلاً منطقياً (لم تسلم كبراه) ويقول : هذا ما أدّى إليه ظني، وكل ما أدى إليه ضني فهو حكم اللّه في حقي وحق مقلدي . يقول له الأخباري: متى وصلت النوبة (لا سمح اللّه) الى الظن، وقد نصت الآيات والاخبار على قبحه وذمه وذم العامل به اطلاقاً غير قابل للتقييد، وتعميماً أبيّاً عن التخصيص :(أن الظن لا يغني من الحق شيئاً).

13 ـ وقد اجمع الإمامية: على عدم أصالة حجية الظن في أمور الدين جميعها مطلقاً، وعدم جواز العمل فيها بغير العلم، وإنها مبنية على العلم واليقين. بذلك صرح المفيد قعليه الرحمةپ في جملة مؤلفاته كالمسائل السهروردية، والعيون والمحاسن والمجالس، والسيد المرتضى علم الهدى في مواضع من الانتصار والذريعة والشافي، وشيخ الطائفة في مواضع من العدّة وفي كتابي الأخبار، وابن إدريس في مواضع من السرائر، والشيخ ا بن قبة في كتاب الرد على الزيدية، والكليني في اول الكافي، وتلميذه النعماني في تفسيره وفي كتاب الغيبة، والفضل بن شاذان، والصّدوق في العلل، وامين الإسلام الطبرسي في مجمع البيان، والقطب الراوندي في فقه القرآن، والكراجي في كنز الفوائد. وإنما الخلاف بينهم في وجه الحرمة انه عقلي أو شرعي؟ وعلى الأوّل يستحيل تقييده لعدم تخصيص الحكم العقلي، وعلى الثاني يحتاج إلى مخصص. أقول: قد بينا عدم صحة التخصيص، ثم نقول كيف انعكس هذا الأصل واندرس وصار الظن حجة وفي أي تاريخ . قالوا: لسببين احدهما غيبة الإمام عليه السّلام فإنها سدت باب العلم كما انها التاريخ.

العدد Issue 640
الخميس 12 ذو القعدة 1428هـ
Thursday - 22 November 2007 22 نوفمبر

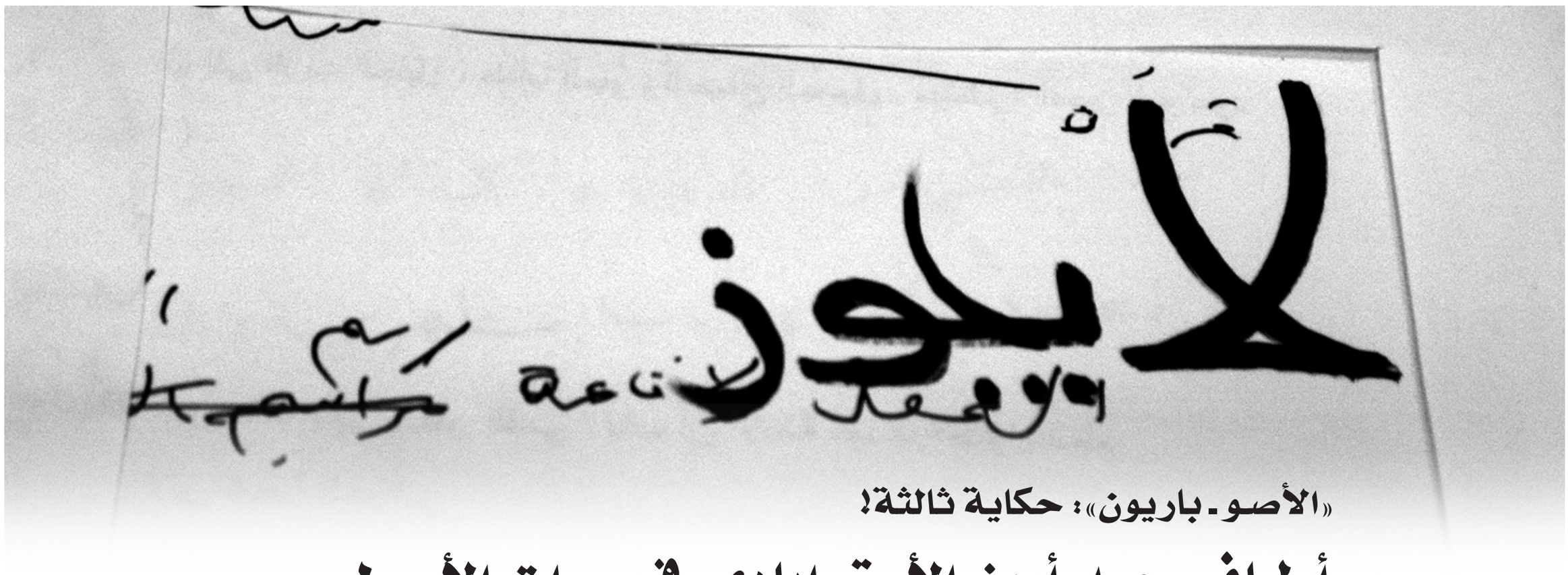

«الأصو - باريون»: حكاية ثالثة!

أطياف محمد أمين الأسترابادي في ممرات الأصول

ادريس هاني

«فقد العقل شقاء» ■ علي بن أبي طالب

"الأصوباريون" أو دفعا للاستثقال نقول "الأصباريون"، كلمة مزجية من الأصوليين والأخباريين. قصدت بها أن المعركة الكلامية التي حمي وطيسها ذات يوم بين المدرستين أمنت طريقا ثالثا للعبور وكشفت عن حالة مركبة يعيش فيها الأصولي اليوم حالة فصام يترجم جدلا أصوليا/أخباريا باطنيا. فاذا كان الأصولي يوما احتج على الأخباري بفساد مذهبه في عدم حجية الظهورات - حتى وإن عاد مرة صاحب القوانين، الميرزا القمي(ت1231هـ) واستحال أمرها بعد أن خصها بالمشافهين في مواردها، أي المقصودين بالتفهيم في موردها الأول - بناء على أدلة منها أخبار العرض على الكتاب، فإنه سرعان ما تلكأ الأصولي، وعاد ليثبت عمليا عدم إمكان العرض - حيث كلما بدا ههنا فصام نكد بين النظرية والتطبيق في ممارسة الأصولي، لحظة تولد الفتوى ومخاضها، فاعلم أن مرده ليس إلا ثمرة لقواعد لم تشق بالجملة طريقها إلى الواقع الموضوعي الموجود "هناك" وإن أمكنها أن تشق طريقها ببسالة في وجود ذهني متربع "هنا" - وهو ما جعل التأويل صعبا عند الأصولي أكثر مما استحاله الأخباري.

بل أحيانا تستحيل قواعد الأصول والنموذج المعرفي الذي يؤطرها قيودا وسجونا مانعة من دخول فضاء الاجتهاد الكبير. أقصد: إذا كان الأصولي واجه شبهة الأخباري بدليل الانسداد مفرغا إياه إلى كبير وصغير مثلما عالجه بعلم إجمالي كبير وصغير، كان لا بد أن نقول إن الاجتهاد اليوم يحتاج إلى تفريع آخر، ما عدا الاجتهاد المطلق والاجتزائي، بل لنقل هناك اجتهاد كبير لم نبلغه حتى اليوم، لصالح اجتهاد صغير يتأطر في قواعد وقوانين هي الأخرى لم يطلق سراحها المرهون بالنموذج المعرفي الكبير، ذلك لأنها لم تجتهد أكثر في تهذيب نموذجها المعرفي. وعليه فالاجتهاد الأكبر في نظري هو الاجتهاد الذي يلامس باستمرار هذا النموذج متى تأكد أن النموذج السابق لم يعد يساعد على تحرير العملية الاجتهادية. لأوضح أكثر: إننا في حاجة إلى مزيد تهذيب للعلوم المساعدة؛ المنطق والحكمة واللغة والأصول.. فلكل عصر ذائقته في التهذيب ولكل جيل رصيده من القيمة المضافة على صعيد تطور العلوم. الاجتهاد المستدام الذي يجعل الأجيال تستوعب أوج المعقول في عصرها كما استوعب القدامى أوج المعقول في أعصارهم.

انقراض كياني لا انقراض إشكالي

صحيح أن الأخبارية - ككيان - انقرضت وان ظل لها بقايا يعبرون عن آرائهم التقليدية بطرق تتناوب بين البوح والتقية، غير أن إشكالاتهم ظل لها حضور كبير في ثنايا الأصول. ولئن اعتبر البعض يوما أن جناب الأغا البهبهاني(ت 1205) قد سد الضربة القاضية للملا محمد أمين (ت 1033) كما أطلق متأخروا مدرسته رصاصة الرحمة عليه كما فعل صاحب الرسائل، فإن أطيافه مازالت تجول وتصول في ممرات الأصول بعد أن تركت وراءها إشكاليات مفتوحة لن ينهض منها الأصولي. بل قدره أن يجتهد وسعه ليشحذ مدية حجاجه حتى إذا ظن أنه اجترح ما لم يجترحه قدماء الأصوليين، بان له أنه راوح المكان ونسج على روح ما سلف من الحجج، في حالة سيزيفية، تتهاوى أمامها حجج ومفارقات الأصولي إزاء إشكاليات سيالة ذات جذر أخباري. لقد حمد الله الشيخ المطهري (ت 1399) إن كان لم يقدر أن يكون للإخبارية متوكل عباسي مثلما قدر لأهل الحديث، لما كان هذا الأخير سببا في انقراض المعتزلة. وقد يكون الأمر صحيحا إذا اعتبرنا الانقراض الكياني مساوقا للانقراض الإشكالي. ففكر المعتزلة ومسائلهم ظلت حاضرة وبقوة أكبر في الاشتغال الكلامي والفلسفي الإسلامي لم تمتد إليها يد المتوكل. يشهد على ذلك أن رعيل مثقفي العرب المعاصرين أنسب إلى روح الاعتزال منهم إلى غيرهم، وإن بتنا نرى منهم من عزم على قلب الطاولة لصالح شكل من التعقيل الهجين لمقالات الحشوية من أهل الحديث.

في اللاوعي تسكن حقيقة أخرى

هذا التشاكل الواعي واللاوعي في مثال الشيخ المطهري بين الأخبارية وأهل الحديث، وكذا الأصوليون والمعتزلة يوحي بمدى آخر كان يتعين أن تختزل فيه عقدة النزاع: مسألة العقل ووظيفته في مجال التشريع. الحسن والقبح العقليين، والعقل بوصفه مصدرا من مصادر الشريعة كما ربع الأصولي بعد أن ثلث القديمون وبعد أن حصر الإخباري كل المصدر في الرواية. لا عجب أن يعادي الأخباري المعتزلي للجنبة ذاتها. ألم يكتب أحد معتدليهم النبهاء صاحب الحدائق "سلاسل الحديد في الرد على ابن أبي الحديد"؟! لقد اعتبر المحقق البحراني (ت 1107) أن ابن أبي الحديد (ت 656) حاول شرح النهج على قواعد الاعتزال، فرد مضمون النهج إلى حضيرة الولاية بمضمونها الإمامي. المطهري يعتبر ظهور الأخبار نكبة أليمة في العالم الشيعي جعلها تفوق ظاهرة الحشوية وأهل الحديث في الإسلام السني. وهو بذلك يعبر عن الموقف الأصولي اليقظ الذي يدرك أن لعبة الأخبارية السوسيو- ثقافية خطر، يرتكز على توظيف ديماغوجي لسيل من الأخبار مغر للجمهور وإن كانت مقاصده تسطيحية جارفة للعقل مانعة لممارسته. مثل الموقف العنيد للأغا البهبهاني وللأستاذ مرتضى الأنصاري (ت 1281) والآخوند (ت 1329) وأساتذة المطهري المعاصرين السادة البروجردي (ت 1383) والخميني (ت 1410) وطباطبائي (ت 1412). لم تكن الأخبارية لا سيما في أطوارها الأولى بعيدة عن هذا الشكل الهجين من التعصب الذي جعل بعضهم في كربلاء لا يتناول كتب المجتهدين إلا بواسطة قطعة قماش إمعانا في اعتبار نجاستها قبل ورود الآغا. هذا الأخير الذي ناضل دفاعا عن الأصول كما في الرسالة الحائرية ونظائرها، من دون أن يمنع ذلك من التواصل مع صاحب الحدائق بعد أن استقر به النوى في الكاظمية، ودون أن يمنعه ذلك من أن يحضر جنازته ويصلي عليه بعد أن سلم روحه الطاهرة. لكن ليس كل الأخبار كانوا على مسلك الملا محمد أمين في صلابته التي وصف بها كما وصف بها بعض المتأخرين منهم الحر العاملي (ت 1104) فيما يصفه المحدث النوري (ت 1320) . فالمجلسي (ت 1111) والكاشاني (ت 1091) والمحقق البحراني والجزائري (ت 1112)، كانوا أميل إلى الاعتدال. ربما تحرج المعتدلون منهم من الطريقة التي دبر بها متعصبوهم خصومتهم الطروادية ضد الأصوليين فأفسدوا الدنيا بملاحم أفسدت العقل بعنادها الطليق وأفسدت الدين بحجاجها العليل. فصاحب الحدائق سلك مسلكا آخر، تواصليا ومسامحيا وأخلاقيا.. فهو يثني على المجتهدين ويعبر عن احترامهم بأجمل الثناء والوصف، وفي الوقت نفسه يهجو طريقة الأخبار التقليدية في النيل المعتسف من الأصوليين خارج دائرة النقاش العلمي وأخلاقيات تدبير الخلاف. فبقدر احترامه للمجتهدين كان هجوه للملا محمد أمين والفيض الكاشاني.. بل وكما يذكر الميرزا محمد التنكابني أنه عادة ما سلك مسلك المجتهدين في كتاب الحدائق الناضرة.

الأخبارية اندمجت في الأصولية

ليس ذلك مجازفة مني. فهذا الأغا بزرك الطهراني يعتبر أن الجدل المتأخر بين الأصوليين والأخبار بخصوص الاجتهاد هو لفظي ليس إلا. ذلك لأن العمل بالخبر ليس في نهاية المطاف إلا العمل بمعناه. وإذا سلكنا مسلك الاقتصاد في الخلاف سوف نجد لا محالة أن جدلية التوسيع والتضييق في موارد الخلاف تتوقف على اختيارات تواصلية، من الممكن أن نضخم موارد الخلاف الأصولي - الأخباري ليفوق الخيال كما بالإمكان تقليصه إلى الحد الأدنى. وهذا ما فعله كثيرون، نزلوا بموارد الخلاف من ستة وثمانين كما فعل محمد فرج إلى عشرة كما فعل المحدث البحراني. وإذا كان الأغا بزرك قد اعتبر في حصر الاجتهاد أن الخلاف لفظي، فذلك ما سنراه في رسالة السيد محمد سعيد الحكيم:"الأصوليون والأخبارية بين الأسماء والواقع". نعود فنقول أن الدواعي السياسية حينما تحضر بإيجابية تساهم في سياسة الخلاف باقتدار تواصلي وحنكة تسامحية مطلوبة. فالصراع الاخباري - الأصولي رغم أنه لم يترجم إلى حرب أهلية كبيرة باستثناء حادثة الميرزا محمد المقتول (ت 1232هـ). ولنا أن ننظر إلى هذا الوصف الذي يحيلنا إلى السهروردي(المقتول استثقالا لوصفه بالشهيد. فإذا لم يكن قد قيض كما ذكر المطهري للأخبارية متوكل ينتصر لمذهبهم انتصار هذا الأخير لمذهب أهل الحديث، فإن محاولات الأصوليين في استدراج السلطة في شخص الشاه القاجاري للقضاء على الميرزا محمد من قبل أعلام كبار كالشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت 1228هـ)، هو موقف شبيه بالأول. فلا الأخباري وجد متوكله العباسي ولا الأصولي وجد مأمونه العباسي. فالإفتاء هذه المرة سيكون أصوليا من خلال فتوى قتل الميرزا الصادرة عن السيد محمد المجاهد (ت 1242هـ). بعد ذلك كان لا بد أن ينتصر التواصل ويحل التضييق محل التوسيع في الخلاف، ليكون الاقتصاد في الخلاف سيد الموقف.

شبهات الأخبار لم تقبر في اشتغال الأصول

النزاع بين المدرستين الاجتهادية والأخبارية ضارب الجذور في الاشتغال الأصولي على الرغم من أن الصراع المرير الذي استمر زهاء القرنين بين المدرستين - إذا تسامحنا وحسبنا الفارق الزمني بين وفات الملا أمين ووفات الآغا الوحيد البهبهاني - كان قد انتهى لصالح الأولى. هكذا يقولون ثم يسدلون الستار. وإن رأينا أنه حكم يحتاج إلى بعض التأمل، حيث مازلنا نعتقد أن ذلك الصراع لم يحسم لصالح المدرسة الاجتهادية إلا تسامحا وتغليبا . والحق أننا وجدنا أنفسنا أمام تطور مشهود في المدرستين كشف عن ضروب لا تكاد تخفى على أهل الخبرة من ضروب التوافقات المعلنة وغير المعلنة. ومع ذلك لا يزال الهاجس الاخباري يلقي بظلاله على حيز اشتغال الأصوليين. يكفي أن نلاحظ أنه ما من أصولي في مقام استعراض رسالته الأصولية إلا واضطر في بحث الاجتهاد والتقليد أو التعرض لتاريخ نشأة الاجتهاد ودواعيه أو الاحتجاج على حجية الظهور وخبر الواحد وحجية الكتاب والقطع والظن الخاص والانسداد والبراءة أو الوظيفة الشرعية والموقف التكليفي في مقام الشبهة التحريمية - ذلك لأن الأخبارية سيوافقون الأصوليين في القول بالبراءة في موارد الشبهة الوجوبية خلافا لموقفهم الرافض للبراءة في مقام الشبهة التحريمية - إلى التعرض لهذه اللحظة المفصلية في تاريخ التأصيل الشيعي الإمامي، ناهيك عن سلطة الاحتياط التي مازالت تحتل المساحة الأكبر في صناعة الفتوى. بل من المؤكد أن جملة المباحث والمسائل والإشكالات التي شكلت مدار تحليل ونقض الأصوليين المتأخرين ناتجة عن أمهات المسائل التي طرحها الأخبارية على الأصوليين. إن أولى الملاحظات الأساسية في هذه التوطئة هو أن المدرسة الأصولية في أوج عطائها وتطورها مدينة لذلك النقاش الكبير الذي فجره ما سماه الأصوليون تهوينا، بشبهات الأخبارية. فيما هو لو نظر إليه بمنظار حيادي هي أمهات إشكاليات الأصول في مرحلته المتأخرة.

أي جدوى من إحياء القول في هذا النزاع؟

أقول، إن هذا الجدل بين المدرستين قديم جدا وقيل حوله الكثير. وإذ نتحدث في هذا الموجز عن هذا الخلاف التقليدي بينهما لا بد من بيان القيمة المضافة لأي مكتوب حول هذه القضية الشائكة. إننا ندرك أن تأريخا مفصلا وتحليلا دقيقا لمختلف أوجه الرأي بينهما لا يتسع له مقال. لكن المهمة تقضي ببعض الإشارات التي تؤكد على أهمية استدعاء هذا النقاش لسبب أول هو أن إشكاليات الأخبارية لا تزال محط نظر الأصوليين وبعضها لا يزال يراوح أوجها من الاستدلال لم ينهه كبار المرحلة المتأخرة من الأصول بدءا بطليعة المواجهة الأصولية ضد الأخبار، الشيخ وحيد البهبهاني وكبير النظار الأصوليين المتأخرين الشيخ مرتضى الأنصاري وكذا صاحب الكفاية الآخوند الخرساني.. بل إنك تجد أن إشكالية مثل تلك التي طرحها ابن قبة الرازي لا زالت مدار جدل أصولي على ما يبدو من بساطة ظاهرها حتى اليوم. وحتى وإن لم يعد طرفي النزاع في مثل هذه الإشكاليات هما الأصولي والاخباري، فإن الأخباري بعد أن قذف بإشكالياته في حضن الأصول تفجر شكل من النزاع المستدام الأصولي - الأصولي حول الشكل والصيغ والحجج الأقوى لرد شبهة الأخباري. وحيث لا يزال النزاع متواصلا في حاق الأصول حول متانة وكفاية حجج الأصولي إزاء شبهة الأخباري، تكون الأخبارية حاضرة في الأصول وهاجسا نجح في إذكاء أكبر نقاش أصولي على الاطلاق.. فالأخبارية إذن حاضرة بإشكالياتها وإن انقرضت كوجود حقيقي ذي كيانية مهددة للأصول. وأما السبب الثاني فإن الأمر يدعو لإعادة قراءة ذلك الجدل بمنظور مختلف وبأدوات أكثر حيادا وهو أمر يصعب التفصيل فيه ههنا وإن اكتفينا فيه ببعض الإشارات.

هل تصلح الجغرافيا لتفسير ظاهرة الأخبارية؟

لعل أهم قضية تطرح في سياق تأمل الصراع الحاد بين المدرستين، هي مدى الدوافع التي تصلح مقاربات لتفسير الظاهرة الأخبارية، أقصد الأبعاد النفسية والاجتماعية والجغرافية والتاريخية..ونحن هنا سنقتصر فقط على إبراز مسألة أساسية لتفسير تاريخية هذه النشأة وظروفها، من حيث هي ظاهرة وجدت دوافعها وجذورها في الإحساس الديني العارم للمجال "السوسيو- ثقافي" الشيعي. فالجغرافيا هنا لا تقدم ولا تؤخر. وصعوبة ذلك راجع إلى أن أعلام الأخبارية شأنهم شأن أعلام الأصولية عاشوا حالة من التنقل والترحال بين الحواضر العلمية الأساسية للمجتمع الشيعي. وهذا معناه صعوبة ضبط الدوافع والشروط الجغرافية لنشأة الأخبارية. فهي ظاهرة عرفتها إيران والبحرين والعراق ولم تخل منها حضيرة من الحواضر. فصاحب الحدائق البحراني من معتدلي الأخبارية عاش في القطيف وفي العراق وفي شيراز.. والاسترابادي المؤسس لهذا التيار أو لنقل محييه ومنسقه، إيراني عاش وكتب رسالته العمدة "الفوائد المدنية" في المدينة المنورة.. وهكذا فإن الجغرافيا لا تقول لنا شيئا من الناحية التفسيرية. فالأخبارية عرب وعجم سواء بسواء كما أن الأصولية عرب وعجم سواء بسواء. وليس ثمة من لحظة تاريخية لصعود هذا التيار سوى ردة فعل طبيعية للنشأة الجديدة للمدرسة الأصولية الاجتهادية في مجتمع علمي شديد الالتفات وفي مجال سوسيو - ثقافي شديد الحساسية. هكذا أمكننا القول أن ظروف نشأة الأخبار هي نفسها ظروف نشأة المدرسة الاجتهادية الأصولية. فالظواهر الجديدة تخلق مضاداتها بصورة تلقائية.

hani_dr@maktoob.com

2-1

» الأخبارية - ككيان - انقرضت وإن ظل لها بقايا يعبرون عن آرائهم التقليدية بطرق تتناوب بين البوح والتقية «

» الجدل المتأخر بين الأصوليين والأخبار بخصوص الاجتهاد هو لفظي ليس إلا «

» المدرسة الأصولية في أوج عطائها وتطورها مدينة لذلك النقاش الكبير الذي فجره ما سماه الأصوليون تهوينا، بشبهات الأخبارية «

العدد Issue 640
الخميس 12 ذو القعدة 1428هـ
Thursday - 22 November 2007 22 نوفمبر

الإخبـاريـون وإعـادة الإنتـــاج

موفق الحلي ■

الحركة الإخبارية هي التمثُّل الآخر المستتر (لا عن تعمّدٍ) للمنهج المعرفي الشيعي الذي يمثّله غالباً الأصوليون. والأصوليون كما هو معلومٌ قد تسيَّدوا ومنذ أواخر القرن الثاني عشر الهجري ساحة الحراك الفقهي والمرجعي الشيعي بعدما تسيَّدها الإخباريون طيلة قرنين من الزمان كانت لهم خلالهما الهيمنة الشاملة.

ومنذ ذلك الحين الذي وقف فيه الوحيد البهبهاني المتوفى سنة 1206 هجرية بوجه المد الإخباري وأجبره على الانحسار بمختلف الأساليب.. منذ ذلك الحين اقترن جلُّ البحث الفقهي والمعرفي والفلسفي ومعظم النتاج الفكري الشيعي بالتمثل الأصولي دون الإخباري. حيث انكفأ الإخباريون بشكلٍ شبه كليٍ فلم يعد لهم تأثيرٌ يذكر إلاّ في القليل النادر. ونحن في هذا المقال نحاول إلقاء نظرة على مدى استجابة الإخباريين لمفهوم إعادة الإنتاج مقارنةً بالأصوليين [1].

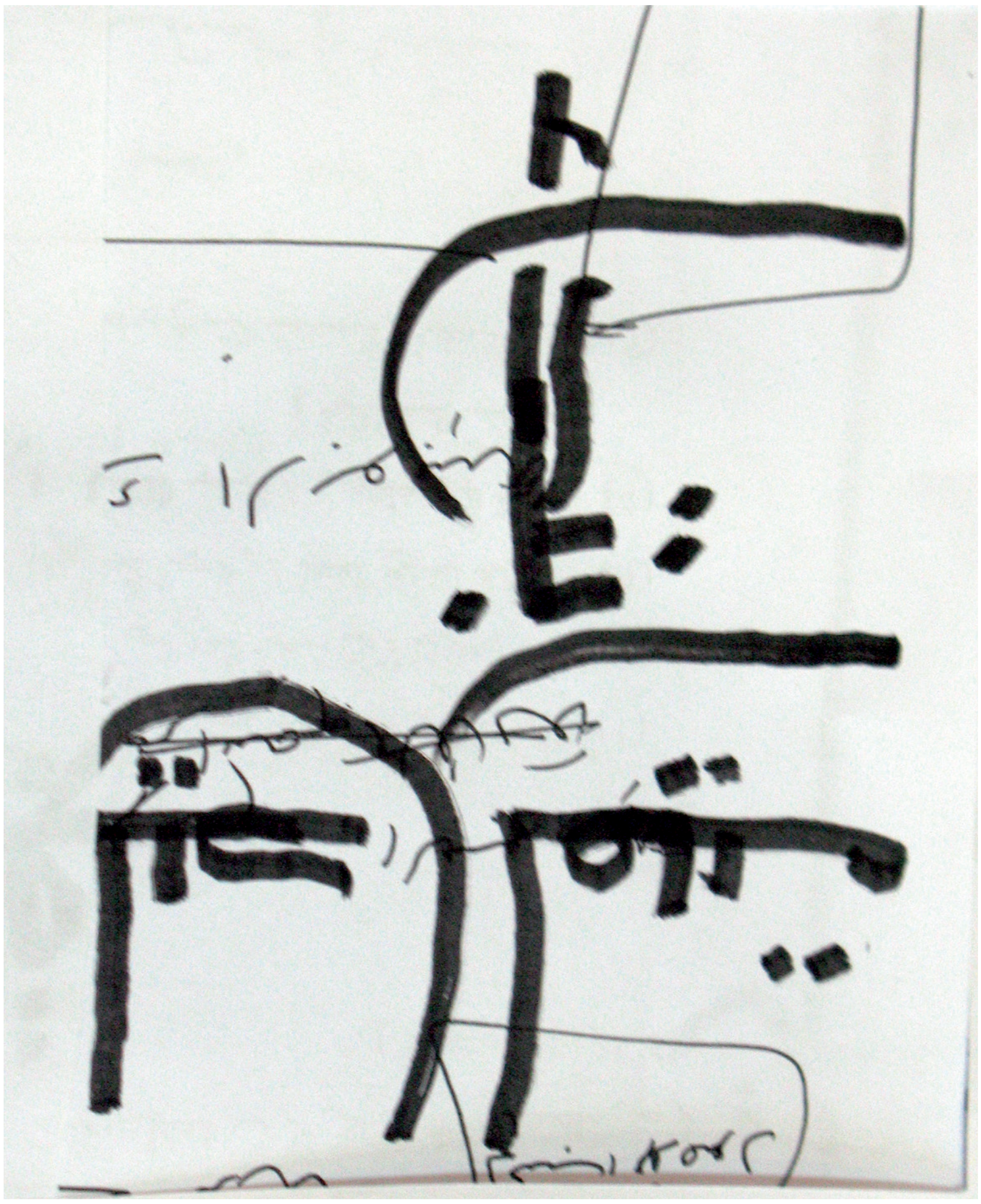

التنظير الإخباري لم يكن بمعزلٍ عن النصوص المقدسة التي يعتمدها

العزلة الرهابية المفروضة على الفكر الإخباري طيلة القرنين الماضيين قد حالت دون خروجه عن قمقمه

هناك التقاء فكري ملحوظ بين الحركة الفكرية الإخبارية، والمذاهب الحسية والتجريبية في الفلسفة الأوروبية

ما تقدّمه المنهجية الإخبارية من مضامين تمَّ التعتيم عليها من قبل المدرسة الأصولية

الأصوليون والتساؤل المعرفي

بعد الصدام المعرفي مع النتاج القادم من الغرب الذي لاحت آثاره أبان القرن التاسع عشر الميلادي، واشتدّت من بعد طيلة القرن العشرين ولغاية الآن. فقد كان طبيعياً أن ينبثق التساؤل المعرفي الحديث من داخل المدرسة الأصولية دون نظيرتها الإخبارية مطالباً مبتدأ أمره بالتحديث الشكلي في أساليب تلقي العلوم داخل الوسط الحوزوي.

وهو تحديثٌ لا يتعدّى تغيير الأسلوب القديم الفوضوي وغير المنتظم في الدراسات الحوزوية إلى أسلوبٍ نظامي يحاكي ما في الجامعات الأكاديمية الغربية أو مثيلاتها التي استحدثت في بلاد المسلمين. كما أن هذا التساؤل المعرفي قد أفضى إلى ضرورة المطالبة بإعادة إنتاج الفقه الأصولي المتقادم في صيغةٍ عصريةٍ تنبو به عن التعقيد والطلسمة الغالبان على المصنفات المرجعية في الفقه والأصول والفلسفة والعقائد (علم الكلام).

وبعد ردحٍ من الزمان اعتمد الأصوليون هذا التحديث الشكلي الذي أعاد إنتاج المعرفة السابقة دون المساس بجوهرها أو تعريضها للسؤال المعرفي المحرّض على الفرز بين الصحيح وبين الخاطئ، بين المقبول في إطار الواقع الموضوعي لهذا الزمان المقترن بالمنهجيات العلمية الصارمة، وبين ما كان مقبولاً في إطار الحضارات القديمة التي أُنتِجَت فيها معارف يراد النظر فيها حالياً. ولكنَّ ضغط البحث الابستومولوجي الحديث وتعمّق المباحث الألسنية، والضربات الصميمية للحداثة بتنظيرها واسع المدى من جهةٍ، وعجز الفقه التقليدي المعاد شكلياً عن الإيفاء بمتطلبات الواقع المعاصر بمتغيراته الدائمة، وفشله الذريع في إيجاد الحلول للمشكلات التي ألمّت بالمجتمع الإسلامي من جهةٍ أخرى..

كل هذا قد أفضى مؤخراً إلى حراكٍ خجولٍ يطالب بضرورة إخضاع المقول الديني بتمثله الأصولي للسؤال المعرفي إخضاعاً جوهرياً لترسيم حدود ما فيه من حقائق عن ما فيه من زيف، ولفصل النظر الإلهي فيه عن النتاج البشري الكامن في متون التفسير وقراءات الإسلاميين عموماً. ومازال هذا الحراك ينوء تحت وطأة خجله النابع أساساً عن تحفظه من إثارة المؤسسة الدينية التقليدية على أمل أن تظهر إعادةٌ للمعرفة الأصولية قادرة على التماشي مع مستجدات ما بعد الحداثة لا التصادم معها عبر الترديد الفتوائي التكفيري الذي لم يَعُدْ مؤثّراً أمام ضخامة التساؤل المعرفي الآخذ بالكثير من المفكّرين الغارقين في خضم المنهجية الأصولية للدخول في غابة اللايقين والشك والريبة بعدما كانوا يتفيَّئون في ظل القناعات الثابتة.

بل قد برزت نتيجة ضغوط هذا التساؤل تيارات فكرية كثيرة من خارج الوسط الحوزوي تحاول أن تكسر احتكار هذا الوسط لفهم الدّين بما في ذلك فهم مبادئه الأولية وذلك من خلال رفع يافطة التنوير أو التجديد، وذلك بعدما ضاقت ذرعاً بتجاهله وعدائه للسؤال عن صحة ما يقوم عليه من أسس عقائدية وفقهية وفلسفية. وقد قام بعض هذه التيارات بإعادة إنتاج هذه المبادئ الأولية نفسها بما تنطوي عليه من تفرعات متشعبةٍ وبشكلٍ تحاول جعله متواكباً قسراً وتعسفاً مع الحداثة بمنعطفاتها ومتغيراتها، فأضحى الدين بهذه الطريقة تشكّلاً مميَّعاً لا معنى له على الإطلاق.

وبالطبع فالمؤسسة الدينية الأصولية قد وجدت نفسها في صراعٍ جديدٍ مع هؤلاء التنويريين والتجديديين وصل حدّ التكفير لهم أيضاً بحكم محاولاتهم الواضحة لإبعاد المفاهيم الدينية الارتكازية عن مقاصدها التي لم يقع عليها خلافٌ بين عامة المسلمين والتي لا يمكن إعادة إنتاجها إلا لنفسها لثباتها المعنوي.

الإخباريون في خضم الانعزال

ولكن ماذا عن الحركة الإخبارية؟ وأين هي من هذا الاحتدام المعرفي الذي عمَّت آثاره على البناء العقلي ومن ثم النفسي والسلوكي للمسلمين قاطبةً بحيث جعلت منهم أنموذجاً للمجتمع المنفصم الذي يؤمن ظاهراً بمفاهيمه التقليدية ويكفر باطناً بها؟!.

جليٌّ إنَّ العزلة الرهابية المفروضة على الفكر الإخباري طيلة القرنين الماضيين قد حالت دون خروجه عن قمقمه. فلا نكاد نسمع أن له دوراً حوزوياً مستقلاً ولا حتى مدارس منفصلة أو حلقات نقاش خاصة به. بل قلّما أو يكاد يستحيل العثور على مؤلفٍ تنظيري خالصٍ واحد للإخباريين في المكتبات العامة أو الخاصة فضلاً عن مكتبات الجامعات ومعاهد العلم. ولم يحدث أن تمّت طباعة كتابٍ أساسيٍ من كتب الإخباريين طباعةً حديثةً إلاّ قبل عامين تقريباً عندما تمت طباعة كتاب (الفوائد المدنية) للمحدّث محمد أمين الاسترابادي المتوفى 1033 للهجرة، ولكنه لم يطبع مستقلاً بل مذيلاً بنقدٍ قاسٍ لمعاصرٍ له هو السيد نور الدين العاملي المتوفى 1062 للهجرة.

وأسلوب نقد الكتاب يحاكي التهم التي يوردها الأصوليون على الإخباريين من أنهم يتعمدون التشنيع دون الحوار الموضوعي. وهذا يعني أن الكتاب طبع محاطاً بحراب الإرهاب الفكري وإلاّ كان الأجدر أن يطبع مستقلاً ليفهم القارئ منه بكلّ حريةٍ ثم يستضيء بهذا الفهم في التفاعل مع النقد الموجّه لهذا الكتاب، لا أن يُصادَرَ فهمُهُ من رأسٍ بنقدٍ مقصودٌ به إثارة النبوّ عن الكتاب نفسياً!.. فهذا العمل لا يعدُّ موضوعياً، بل هو من صفات الأدلجة المستبدة والمرفوضة في دنيا البحث العلمي الحديث.

وبالطبع ففي ظل هذا الوضع فلم يكن ممكناً أن يهتمَّ الفكر الإخباري بالسؤال المعرفي، بل لم يكن ليعنيه هذا السؤال في شيء. وذلك على الرغم من أنه لا يفتقد الحكمة ولا المقدرة لمعالجة الإشكالات النابعة منه، كيف؟!!.. وقد أقرَّ أحد أكابر منظري الفقه الأصولي وهو السيد محمد باقر الصدر رحمه الله بأن لهذا الفكر جنبة مهمة ألمح إلى أنها أحدى التأثيرات الهامة التي ساهمت في ولادة العملاق الحضاري الغربي.. وهي إيمانه بالمعرفة الحسية ورفضه الاكتفاء بمجرد النظر العقلي. فقد ذكر السيد الصدر أنَّ الحركة الاخبارية (سبقت بما تمثل من اتجاهٍ حسيٍ التيار الفلسفي الحسي، الذي نشأ في الفلسفة الاوروبية، على يد جون لوك المتوفى سنة 1704م، ودافيد هيوم المتوفى سنة 1776م.

فقد كانت وفاة الاسترابادي قبل وفاة جون لوك بمئة سنة تقريباً، ونستطيع ان نعتبره معاصراً لفرنسيس بيكون المتوفى سنة 1626م، الذي مهد للتيار الحسي في الفلسفة الأوروبية)، ثم ينتهي السيد الصدر إلى هذه النتيجة: (وعلى أيّة حال فهناك التقاء فكري ملحوظ بين الحركة الفكرية الإخبارية، والمذاهب الحسية والتجريبية في الفلسفة الأوروبية، فقد شنت جميعاً حملة كبيرة ضد العقل، وألغت قيمة أحكامه إذا لم يستمدها من الحس.

وقد أدَّت حركة المحدث الاسترابادي ضد المعرفة العقلية المنفصلة عن الحس، إلى نفس النتائج التي سجلتها الفلسفات الحسية في تاريخ الفكر الاوروبي..) ثم يقول مستطرداً: (ولكن ذلك لم يؤد بالتفكير الإخباري إلى الإلحاد كما أدى بالفلسفة الحسية الأوروبية) معللاً ذلك بأنّ الحركة الإخبارية: (قد اتهمت العقل لحساب الشرع لا لحساب التجربة، فلم يكن ممكناً أن تؤدي مقاومتها للعقل إلى إنكار الشريعة الدين)[2].

فهمٌ في محلّه!:

ونفهم ضمناً من الفقرات أعلاه أنه لو قُيِّضَ للفكر الإخباري التسيّد والانتشار لكان ممكناً أن يكون له أثرٌ بنّاءٌ في إنهاض الشرق الإسلامي عبر حضارةٍ مماثلة إن لم تكن أفضل من حضارة الغرب التي بدأت أول ما بدأت بالتنظير الفلسفي القائم على التجربة الحسية اليقينية لا على محض المنطق العقلي الأرسطي الذي لا زال معشعشاً في العقلية الأصولية التقليدية للآن. ولكنها حضارة لا إلحاد فيها بالطبع كما أشار الصدر رحمه الله.

ومن المؤكد أن التنظير الإخباري لم يكن بمعزلٍ عن النصوص المقدسة التي يعتمدها والموصية بضرورة الركون لليقين في كافة القضايا من خلال التجربة لا من خلال الشرع فقط.. ومنها تلك النصوص القرآنية المطالبة بالسير والنظر والتفكر في خلق الله.

من هنا.. فلم يكن من الوارد الحديث عن إعادة الإنتاج عند الفكر الإخباري. ولكن هذا لا يعني أنه لا تمكنه الاستجابة للسؤال المعرفي الذي يحتّم هذه الإعادة، ولكنه يحتاج إلى بعثٍ جديدٍ وعقولٍ قادرة على تمثله واستيعابه بالشكل الصحيح كي تبحث بجدٍ عن إجاباتٍ صادقةٍ للتساؤلات المعرفية المعاصرة التي لا ترضى بأقلّ من تفكيك العناوين الرئيسة لأي منهجية فكريةٍ شمولية.

ونعتقد أن في ما تقدّمه المنهجية الإخبارية من مضامين تمَّ التعتيم عليها من قبل المدرسة الأصولية السائدة كنزاً من الإجابات المتينة القادرة على تأصيل الفكر الإسلامي إزاء كل المحاولات الرامية لجعله تاريخاً مضى، أو مقولات لا تصمد أمام التحقيق[3]. بل يبدو في الأفق انطلاقةً حديثة تبشّر بالكثير تبنّت بعض جزئيات المنهج الإخباري في متن دراساتها القليلة وإن خالفته ومعه المنهج الأصولي في بعض المبادئ الأساسية الخاصة بأساليب التعامل مع النص اللغوي بما هو نص، أعني بها النظرية القصدية للمرحوم عالم سبيط النيلي، وهي نظرية ينتظر منها أن تقف بقوةٍ أمام التساؤلات الكبيرة في مجال البحث المعرفي الحديث[4].

الهوامش

[1] مصطلح إعادة الإنتاج نقصد به: استخدام الآليات الموثوقة معرفياً للبحث في مضمون النص وتفكيكه من خلال الفرز والمقارنة بين معطياته وبين ما تمَّ القطع بصحته من حقائق، بغرض الحصول على إدراك جديد لهذا النص مصاغٍ بلغةٍ عصريةٍ واضحة ومفهومة.

[2] كافة المقتبسات مستمدة من كتاب (المعالم الجديدة للأصول ص44) للسيد محمد باقر الصدر رحمه الله.

[3] واحدة من تلك الإجابات مثلاً موقف بعض محققي الإخبارية مما لا نص فيه والقائم على الاحتياط في الحكم، والسعة في العمل. ومفهوم السعة في العمل هو لوحده فيما لو فهم بصورةٍ صحيحةٍ قابلٌ ليكون في مقابلة كل البحث الأصولي في تقرير الموقف العملي من كل قضيةٍ ترد على النص الشرعي ولا نصّ فيها. ومن وجهة نظرنا فإن هذا المفهوم يعني العمل وفق ما يقدّره المكلف لنفسه من مواقف بعيداً عن تحكم الأغيار مهما كانوا.

[4] النظرية القصدية من إبداع الباحث العراقي الراحل عالم سبيط النيلي (توفي 2000 ميلادية) الذي من مؤلفاته: النظام القرآني واللغة الموحدة والحل القصدي في مواجهة الاعتباطية، ونقد البحث الأصولي وغيرها. وتتفق القصدية مع الإخباريين في جملة أمور منها مثلاً: الموقف من أخبار الآحاد، وتتبنى اعتراضات الإخباريين على جوهر البحث الأصولي، ولكنها تختلف معهم في أمور أخرى مثل الموقف من حاكمية النص القرآني على النص الحديثي حيث تعتقد القصدية تحت شرط النظام المحكم للقرآن بهذه الحاكمية خلافاً الإخبارية.